من تراب الطريق! (٢٢٠) خطرات ! (*)

قليل بل من النادر جدا أن يتأمل أحد فى خطوات وعيه وتوالد أفكاره واختياراته وقراراته قبل ظهورها - إن ظهرت - إلى حيز التنفيذ. ويبدو لى من تأمل طويل أن جميع الأنشطة الواعية - عاطفية أو فكرية .. مثالية أو نفعية - ليست فى الواقع إلاّ خطوات وعيٍ .. تسبق وتجهز لعمليات حيوية غير واعية .. تتحقق أو لا تتحقق فعلا.

وهذه العمليات الحيوية لا شأن للوعى بها .. ولا بتحققها أو بفشلها .. لأنها من صميم النشاط الآلى فى الكائن الحى .. هذا النشاط الآلى الذى لا يتوقف على الرغبة والإرادة، بل يتحرك آليا بتوافر الشروط اللازمة لتحركه .. وافقت مراد الكائن أو لم توافقه .. إذ هو لا يحس بتوافر هذه الشروط .. وقد يتوقع أو يتمنى أو يعتقد أنها لا تتوافر أو لا يمكن أن تتوافر !

نجد هذا فيما يتعلق بما نسميه نشاط الأكل أو الشرب أو الجنس أو العمل أو الاتصالات والصلات الاجتماعية .. بل فيما نسميه الصحة وما نسميه القرابة أو ما نسميه الدار والأسرة والوطن، وما نسميه المدنية والحضارة والدين والإنسانية .

فجميع الأنشطة الواعية تعتمد اعتماداً رئيسيا على المخيلة والتقدير المعرضين للصدق والكذب، والتخمين والمجازفة، وحسن الظن وسوئه ..

(*) المال ٢٠٠٩/٣/٤

وفيهما دائما قدر من المبالغة والتطرف .. فى الإمكان تلطيفه بالفهم والعزيمة، ولكن ليس فى إمكان أحد التخلص من ذلك كلية .

وقد احتاجت الجماعات البشرية بلا انقطاع - احتاجت لتخفيف احتمالات الحيرة والنزق والإفراط والتفريط - إلى الأعراف والعادات والقيم والأذواق واللياقات وكل ما يندرج تحت كلمة الأصول فى اللغة العامية !

* * *

والآدمى كائن معقد التركيب إلى حد بعيد، وهو لا يعلم اللهم إلاّ بصورة غامضة - كيف تعمل أجهزته .. وليس لديه وسيلة مأمونة أو مضمونة لمراقبة عملها .. غالبية هذه الأجهزة تعمل آليا وفى الخفاء دون أن يشعر الآدمى بعملها، ولا يتدخل عقله أو إرادته فى عملها أو تعثرها أو توقفها .. ولا سلطان له على شىء من ذلك ..

ويبدو أن القوة العاملة فى الكائن الحى تتوخى الاقتصاد وتفادى الضياع يحكمها قانون " أقل مجهود " .. وتفضل الطريق القصير . وهذه " الآلية " فيها من الانضباط والاقتصاد ما لا يمكن أن توفره علوم وحكمة البشر ولو اجتمعت على ذلك منذ آدم إلى اليوم !

كذلك يبدو أن عقل الآدمى جهاز إضافى لمساعدة أجهزته الآلية على التوافق مع المحيط وتزويدها بامتدادات تجعل حياته أقوى وأغنى على صورة آليات إضافية، أو على صورة تطوير فى آلياته المزود بها خلقة وأصلا . ونحن نسمى هذه الآليات الإضافية عادات فردية أو جماعية أو جنسية يشترك فيها النوع بأسره .

* * *

وما نسميه بالعقل - لم يكن له هذا المضمون السائد الآن بين المثقفين، وربما اختلف مضمونه باختلاف الوسط والبلد فى ذات العصر . وإذا اخترنا التعقل المنطقى المتبع فى البحث العلمى - كمضمون للعقل، استبعدنا النظرة الأسطورية أو البدائية أو الميتافيزيقية .

ويبدو أن كلمة " العقلية " أوسع من كلمة " العقل " .. فهى تنصرف إلى

مجموعة القيم والمصدقات والأذواق والمعتقدات فى بيئة معينة فى عصر معين .. منها يستمد الآدمى مقدمات تفكيره وينطلق إلى غاياته، وفى مسالكها وقوالبها وقنواتها تمز أشواقه ورغباته ونوازعه ويعمل جهازه النفسى كله .

ومن هنا كان مضمون كلمة " العقل " عرضة للمغالاة .. ليس فقط فى التحديد، بل وفى الدور الذى يُعْزَى إلى العقل فى حياة الآدميين وتاريخهم .. فالعقل أيا كان مضمونه، ومع التسليم بأهميته فى حياتنا، إلاّ أنه لم يكن قط العامل الواضح أو الوحيد أو الرئيسى فى نشأة النظم وتغييرها وتطورها !